# الملكة اللسانية عند ابن خلدون

# Faculty language to Ibn Khaldun

**الأستاذ: بوهني مصطفى**

**جامعة منتوري 01 – قسنطينة-**

**ملخص :**

برزت في الحقل اللساني دراسات تربط الألسنية بعلوم أخرى لتحلل الظواهر اللسانية، فظهرت اللسانيات التربوية والاجتماعية والنفسية وغيرها . كما تعددت النظريات اللسانية ذاتها، لتملأ الدراسات اللسانية ثراءا ، فاخترتأن أتطلع لمناقشة فكر عالم قديم كانت له رؤى خلدها مؤلَّفه الزاخر، و أبحث في آرائه اللسانية التربوية، ذاك هو العلامة ابن خلدون [1] ، من خلال مقدمته الشهيرة .

**الكلمات المفتاحية** : ابن خلدون، المقدمة ، اللغة ، الدراسات اللسانية، اللسانيات التربوية .

**The article summarized*:***

It has emerged in the field of linguistic studies linking linguistics and other sciences to the decomposition of linguistic phenomena,which showed the educational,social and psychological linguistics and others. As there were many theories linguistic itself,to fill the linguistic studies richer,I chose to discussing the thought of an old world was his visions immortalized author rich,that is the Ibn Khaldun,through the famous book introduction .

**Key words :**Ibn Khaldun -introduction – Language-linguistic studies - Educational Linguistics.

## 1- المقدمة :

**إضاءة حول اللسانيات التربوية:**

تعليم اللغة عملية تحتاج إلى الإلمام بالقضايا اللغوية ، وأستاذ اللغة أيضاً لا بد أن يكون واعياً بالأصول التربوية لتعليم اللغة ، ومن هنا تظهر العلاقة المتبادلة

والتلازم الشديد بين علم اللسانيات وعلم التربية والذي أنجب لنا اللسانيات التربوية بوصفها فرعاً من فروع اللسانيات التطبيقية .

تتضح هذه العلاقة في معالجة المشكلات اللغوية التربوية الميدانية من نحو: ماذا يعلّم الأستاذ تلاميذه؟ ما حاجاته التعليمية؟ ما منهجيته في تعليم اللغة؟ كيف يختار مادته التعليمية؟ كيف يتدرج في تعليمه؟ وكيف يعرض مادته؟ كل هذه التساؤلات يعالجها علم اللسانيات التربوية.

نحن ندرك أنَّ النحو العربي وقواعد اللغة قد أضحت تمثال إنجازٍ ماثلٍ بين يدينا يشهد على حسن تجويد صناعه وناحيته ، فقد بذل علماء اللغة العربية الأوائل في جمع اللغة ووصفها وتقعيدها ما لم يسجله التاريخ للغة أخرى غيرها ، واللغة والنحو من أهم القضايا التي تعنى بها اللسانيات التربوية ، ومن أعسر الموضوعات على المتعلمين ، مما أوجد جفوة بين اللغة و متعلميها، ومرد ذلك كما يتداول الكثيرون ليس اللغة في ذاتها ، بل التعسف في مناقشة قضاياها بين علمائها الأوائل وسوء تداولها في العصر الحديث فوقعت اللغة بين سندان هؤلاء ومطرقة أولئك ، فاستصعبها الناشئة .

لقد نقد الكثير من العلماء الأوائل هذه القضية ، وشعروا بالثقل الذي أثقلت به العربية ،فمنهم من باح بشجوه وأورد رأيه في ثنايا مؤلفاته كالجاحظ وابن جني والجرجاني الذين نادوا بضرورة دراسة النحو دراسة ضمنية وظيفية تطبيقية لا نحواً صرفاً[2]. ومنهم من ألَّف رداً على النحاة الأوائل من أمثال ابن مضاء القرطبي وذلك مع اعترافه بقيمة قاعدتهم والهدف من وضعها، يقول: "إني رأيت النحويين – رحمة الله عليهم– قد وضعوا صناعة النحو لحفظ كلام العرب من اللحن، وصيانته عن التغيير، فبلغوامن ذلك الغاية التي أمّوا، وانتهوا إلى المطلوب الذي اتبعوا، إلا أنهم التزموا مالا يلزمهم، وتجاوزوا فيها القدر الكافي فيما أرادوا منها، فتوعرت مسالكها ووهنت مبانيها. " .[3]

ومعنى هذا أن ابن مضاء يسلم منذ البداية بالهدف التعليمي وبالجانبالمعياري، لكنه يرى أن النحاة بالغوا في ذلك،حيث أثقلوا النحو بأمثال العلل الثواني و الثوالث.

وبعد فنحن لا نقف مع ابن مضاء في دعوته، ولا مع المحدثين الذين اتبعوه ، كما أننا لا نقف مع القائلينبأن النحاة قد أضاعوا حياتهم بين زيد وعمرو، ولكننا نريد نحواًيُقبل عليه الطلاب، خاصة في مراحلهم الأولى من التعلم، نريد أن يجتمع فكر

التربويين مع النحويين، ليخرجوا لنا علمهم وخلاصة جهدهم في تيسير تعليم العربية لأبنائها؛ حتى لا تلامسَ لغتَنا الحبيبةَ نارُ القطيعةِ من أبنائها.

**2 - محتوى المقال :**

**مفهوم الملكة اللسانية عند ابن خلدون:**

يقول ابن خلدون : " اعلم أنَّ اللغات كلَّها ملكاتٌ شبيهةٌ بالصناعة ، إذ هي ملَكاتٌ في اللسان ، للعبارةِ عن المعاني وجودتها وقصورِها بحسبِ تمامِ الملكةِ أو نقصانِها . وليسَ ذلك بالنظرِ إلى المفردات ، وإنما هو بالنظر إلى التراكيب . فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة . والملكات لا تحصلُ إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقعُ أولاً وتعودُ منه للذاتِ صفة ، ثم تتكرر فتكونُ حالاً . ومعنى الحال أنها صفةٌ غير راسخة، ثم يزيدُ التكرارُ فتكونُ ملكةً أي صفةً راسخة " [4] .

**أ_ تعريف الملكة اللسانية:**

الملكة في نظر ابن خلدون صفة راسخة في النفس تمكّن الإنسانَ من القيام بالأعمال العائدة إليها ، فهي هنا في اللسان لتمكنه من أداء العمل العائد إليه وهو التعبير عن المعاني ، وينتج تفاوت في تمام هذه الملكة أو نقصانها يقاس بجودة التعبير عن المعنى أو قصوره ، أي بإتقان الفن اللساني ، ويلفت النظر إلى أنَّ تمام هذه الملكة اللسانية إنما هو بالنظر إلى التراكيب اللغوية لا المفردات ، إذ إن هذه التراكيب هي التي تؤدي المعنى المقصود من المتكلم.

إن تمكن هذه الملكة يحصل بقانون التكرار، الذي يصور ارتقاء هذا التكرار من الصفة إلى الحال غير الراسخة في النفس ثم يستمر التكرار لتتكون لدى المتكلم ملكة أي صفة راسخة .

وحين نلقي النظر على علم اللغة الحديث نجد أنَّ الدراسة اللغوية تتدرج من علم الأصوات إلى الصرف إلى النحو، من الصوت إلى الكلمة إلى الجملة، والجملة هي هدف المستويات التي تسبقها وهدف الدراسة اللغوية ذاتها ، وبها يتحقق الفهم والإفهام . [5]

لقد قرر اللغويون المحدثون أنّ للغة ثلاثة مستويات : لغةٌ مفهِمة، ولغةٌ صحيحة ، ولغة بليغة، فالمفهمة هي ما لا يتحرى فيها المتحدث عرف اللغة المستعملة من أنظمة و مقاييس بل يكون الإفهام فيها في أدنى درجاته ، وذلك كما يستعمل الأجانب عن

اللغة العربية الآن هذه اللغة بقصد الإفهام المجرد دون مراعاة لأدنى مستويات الصحة .

أما اللغة الصحيحة فهي المتحرية لنظام الأصوات والبنية والإعراب، وهي درجة أعلى من كونها للإفهام المجرد.

وأما اللغة البليغة فهي التي تحقق مستوى الجمال والتأثير في التعبير، و هي أعلى المستويات[6]، وهنا نشير إلى علم التداولية الذي يبحث في القوى المتضمنة في القول _ أي التأثير الذي ينتج من الكلام ، أو ما يسمى بـ (علم الاستعمال اللغوي)[7]

وابن خلدون في حديثه عن هذه الملكة وبيان أوجه تشكلها لا يخص ملكة اللسان العربي ، بل هي فكرة عامة تنطبق عنده على كل اللغات ، لأن اللغات إحدى مظاهر المجتمع الإنساني الهامة جداً ، وابن خلدون علامة العمران البشري قد استنفد مقدمته في مناقشة مظاهر هذا العمران وقوانينه وتطوره ، وبذا تكون اللغات ونظريته في الملكة اللسانية جزءاً من هذا العمران .

**ب_ الملكة اللسانية غير صناعة العربية وغير قواعد اللغة :**

يقول ابن خلدون : "فمن هنا يُعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية ومستغنية عنها بالجملة" [8] .

ابن خلدون الآن يفرق بين الملكة وقوانين هذه الملكة ، بين العلم النظري والخبرة العملية بالتجربة ، فصناعة العربية ليست شرطاً لتوفر الملكة اللسانية ، ومع ذلك يربط ابن خلدون بينها وبين صناعة العربية فيقول :" والسبب في ذلك أنَّ صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة ، فهو علم بكيفية ، لا نفس كيفية، فليست نفس الملكة، وإنما هي بمثابة من يعرفُ صناعةً من الصنائعِ علماً ولا يحكمها عملاً " [9] . فصناعة العربية نتيجة للمعرفة بقوانين الملكة اللسانية، ومتكلم اللغة ينتج جمله مستعيناً بتلك القوانين ، فالملكة أساس والصناعة بناء قائم عليها وليست هي هي .

ويقول أيضاً: "وهكذا العلم بقوانين الإعراب مع هذه الملكة في نفسها ، فإنَّ العلم بقوانين الإعراب إنما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل" [10] . فالملكة اللسانية هي المعرفة بقوانين الإعراب وليست هي قوانين الإعراب ذاتها .

ثم يمثِّل ابن خلدون لهذا الخلط بواقع كثير ممن درس النحو في عصره وأفنى عمره في دراسة مسائله ، لكنهم مع ذلك يعجزون عن التعبير السليم من الأخطاء ، ومن جهةٍ أخرى ثمة كثير من الأدباء من ينطلق لسانه وقلمه بملكةٍ سليمة وإن لم يكدوا

أذهانهم بمسائل النحو ودهاليزه . فهناك فرقٌ بين ما يتكلم به متحدث اللغة عفواً وبين ما يضعه علماء النحو من قواعد وقوانين عمداً وقصداً. لكنه أيضاً حين يفرق بين الملكة اللسانية وصناعة العربية لا يتنازل عن كون النحو هو حارس الملكة ، يرجع إليه لتصويبها ومراجعتها .

ولقد انتقد ابن خلدون كتب النحو حين وصفها بأنها كتب جافة ومجادلات عقيمة ، لا يستشعر علماؤها أمر هذه الملكة ، ويرحب إزاءَ ذلك بكتاب سيبويه لأنه لم يقتصر على القوانين فقط ،بل ضخَّ فيه دماءً من أمثالِ العرب وشواهِدِهم ، حيث يساعد على تكوين الملكة ، وهو بذلك يطلب أن تحذو كل كتب النحو حذوه بالأمثلة الراقية والنصوص المنتقاة والتمارين النافعة ، وهذا ما يدعمه أيضاً ابن مضاء في رده على النحاة إذ يسوق في مسألةٍ واحدة الكثير من التمارين غير العملية ثم يستنكر ذلك لقلة جدواه وعدم الحاجة إليه ، داعياً إلى إلغاء كل ما لا يفيد نطقاً ، إذ الناس عاجزون عن الحديث باللغة الفصيحة العملية فكيف بهذه المظنونات ؟ [11]. وهذا ما ألح عليه عبد القاهر الجرجاني في أكثر من موضع في دلائل الإعجاز من أنَّ القاعدة النحوية ليست الهدف وإنما دلالتها على المعنى هي الهدف .[12]

ويرى الدكتور عبد الله الخثران أن المراد هو " الابتعاد عن التركيز على القواعد مجردة من التطبيق ، لأن إخفاق الطلاب في النحو راجع إلى التجريد في تعاريفه ، وفصله عن حاجات المتعلم الماسة ، فلا بد من تجسيد تجريدها بأمثلة حية " . [13]

وقد انقسم الباحثون تجاه قضية تطوير وتيسير النحو ثلاثة أقسام : القسم الأول يقول بإلغاء الإعراب وبحذف أبواب النحو التي لا حاجة إليها في نظرهم لكونها لا تستخدم ، والقسم الثاني يرى أن النحو مقدس ويرفض كل ما يتصل بالتطوير ، والقسم الثالث لا يرى بأساً في اتخاذ أسهل الطرق لتقريب المادة العلمية إلى عقول الطلاب ، ويرون ضرورة تحبيب اللغة إليهم .[14]

إننا نرى تمييز ابن خلدون بين الملكة والصناعة بوضوح في النظرية التوليدية التي تحدد الكفاية اللغوية من حيث هي المعرفة الضمنية بقواعد اللغة [15] ،ومن حيث هي قدرة المتكلم على أن يجمع بين الأصوات اللغوية وبين المعاني في تناسق مع قواعد لغته [16] . ومما سبق نستطيع أن ننظر تربوياً إلى محتوى مقررات اللغة نظرة ناقدة لنتجه بألسن الناشئة نحو الملكة السليمة لا نحو الصناعة ، إذ إن كتب النحو ومقرراته أدت إلى ذود الناس عن الإقبال على تعلم اللغة نفسها ، بل و النفرة منها ،

وهذا ما أدى إلى وصم اللغة ذاتها بالصعوبة والتعقيد ظناً من العوام أنَّ اللغة هي هذا النحو المنطق ، وهذا ما حرره ابن خلدون .

**ج - أحوال الملكة اللسانية : فسادها ، امتزاجها بغيرها:**

الملكة اللسانية صفة راسخة في النفس الإنسانية تطرأ عليها عوامل تؤثر فيها، وقد ناقش ابن خلدون هذه العوامل والأحوال بتفصيل نثر شذراتٍ منه :

1_ **فساد الملكة**: قال رحمه الله: " ثم فسدت هذه الملكة لمضر بمخالطتهم الأعاجم . وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل ، صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضاً ، فاختلط عليه الأمر وأخذ من هذه وهذه،فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى.وهذا معنى فساد اللسانالعربي"[17]

يعرِّف ابن خلدون فساد اللسان العربي بأنه تحول يصيب الملكة بسبب تعرض متكلميها إلى أساليب كلامية مغايرة ، فالملكة تفسد شيئاً فشيئاً بتعرض المتكلم بها للغات أخر، جيلاً فجيلاً ، ومع توسع النطاق المكاني لمتكلميها ، ومحاولة غير المتحدثين بها اكتسابها، وذلك عن طريق العامل الجوهري (السماع) حيث وصفه ابن خلدون بأنه" أبو الملكات اللسانية " .

2 _ **امتزاج الملكات** : إنَّ هذا التعرض للأساليب الكلامية المغايرة، أدى مع الوقت إلى البعد عن الملكة اللسانية الأساسية ، وأدى إلى امتزاج ملكتين أو أكثر مكونةً ملكة جديدة ، وبقدر مشابهة الملكة الجديدة للملكة الدخيلة يكون ابتعاد ملكة المتكلم عن ملكته الأم .[18]

لقد فقد النشء الصراط القويم للملكة الصحيحة، إذا تشابهت السبل و اختلطت ، لذا نلحظ نشوء لغات شبابية متداولة [19] ، تبدو كما يقول حافظ إبراهيم :

**فجاءت كثوبٍ ضمَّ سبعين رقعةً مشـكَّلةَ الألـوانِ مختلفاتِ**

فتبرز حاجتنا والوضع كهذا إلى صياغة واقع اللغة من جديد، وصياغة ارتباط النشء به بشكلٍ تخدمه تطلعاتهم وتقنيات فتنوا بها.

**د_- الحدس اللغوي :**

بعد أن ناقش العلامة نظريته في الملكة اللسانية وأحوالها ، انتقل إلى أن يبشر بنتيجة رسوخ هذه الملكة وهي تكوّن ما يمكن تسميته بـ(المصفاة اللغوية) التي يكون متكلم اللغة قادراً من خلالها على التمييز بين الكلام الصحيح الجاري على سنن كلام

متحدثي اللغة وبين ما خالف الصواب ، وذلك نظراً لتمكنه من هذه اللغة حتى أصبح كأحد متحدثيها الأصليين إن لم يكن منهم فعلاً .

يقول ابن خلدون:"وإذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه.وعلم أنه ليس من كلام العرب الذي مارس كلامهم . وإنما يعجز عن الاحتجاج بذلك ، كما تصنع أهل القوانين النحوية والبيانية ، فإن ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء . وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب ، حتى يصير كواحد منهم " [20] .

إنَّ هذه النتيجة التي يصل إليها صاحب الملكة اللسانية أسماها ابن خلدون (الذوق)، فتذوق الطعام للمتمرس بالطهي يمكنه من التمييز بين الطعام المنزلي والطعام الجاهز بلا مقاييس قانونية وإن اشتبه على غيره ، فكأنَّ صاحب الملكة قد نشأت لديه حساسية نفسية أو حدس لغوي ناجم عن معرفته الضمنية بقوانين اللغة يمكنه من الحكم على جملة ما إن كانت من جمل لغته الصحيحة أم لا ، وهذه الملكة قد اكتسبها بصورة طبيعية تلقائية من بيئته التي ترعرع فيها ، بينما يمكن للنحاة الحكم على جملة ما بالصواب أو الخطأ بواسطة معرفتهم المباشرة بالقوانين التي استقرؤوها عبر دراستهم للغة .

" وإن سمع تركيباً غير جارٍ على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل بغير فكر، إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة " [21] .

وإلى ذلك يعود استنكار كثير من البداة الأعراب في عصور الاحتجاج اللغوي لواقع اللسان العربي وفساده في الأمصار ، إذ يحكمون على لسان الحضر بالفساد اعتماداً على ملكتهم اللسانية ذات المعرفة الضمنية بالقواعد .

وموازاة لذلك ترفض النظرية الألسنية التوليدية والتحويلية اعتماد الاستقراء كمنهجية وحيدة في البحث الألسني ، كما يحصل في إطار المذاهب السلوكية ، كما ترفض أن تقتصر على السلوك الكلامي ، بل تعتمد منهجية استقرائية _ استنباطية تضع في ضوئها أنموذجاً متكاملاً لتنظيم القواعد الكامن ضمن الكفاية اللغوية [22].

وأرى أنَّ هذا الحدس اللغوي الذي يصل إليه المتكلم يفيد في بث الثقة في جدوى تعلم اللغة بأسلوب المحاكاة ، كما يفيد في صنع المقاييس والمسابقات اللغوية المنوعة، دون وجود حاجز العجز اللغوي المنطلق من الجهل بالقوانين النظرية .

**هوامش الدراسة ومراجعها :**

[1] هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن خلدون الحضرمي ، انتقل سلفهم من إشبيلية ، ولد بتونس عام 732هـ، حفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع، وقرأ في الحديث والنحو وعلم العربية ، وحفظ المعلقات وغيرها ، وقرأ في الفقه أيضاً ، ولي كتابة الإنشاء وتنقل بين عدة ملوك إلى أن خرج من تونس ، استوطن القاهرة وتصدر للإقراء ، ثم تولى القضاء ومات وهو قاضٍ عام 808هـ ، وله من العمر 76سنة . ينظر: مقدمة ابن خلدون بتحقيق أ. درويش الجويدي (بيروت ، المكتبة العصرية ، ط2، 2003) ص 7_8 .

[2] ينظر: د محمد صاري، بحث بعنوان : (**الفكر اللساني التربوي في التراث العربي** _ مقدمة ابن خلدون نموذجاً) 2007 ، ص 05 .

[3] ينظر: ابن مضاء القرطبي :"**الرد على النحاة** " ، (القاهرة ، دار المعارف ، ط3 ، 1988) ص 72

[4] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون ، "**المقدمة** "، بتحقيق أ. درويش الجويدي (بيروت ، المكتبة العصرية ، ط2، 2003) ، ص 554

[5] ينظر : د. محمد عيد "**الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون**" ، (القاهرة ،عالم الكتب، ط1 ، 1979) ص26 بتصرف

[6] ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

[7] ينظر : د. مسعود صحراوي : "**التداولية عند العلماء العرب** "، ( بيروت، دار الطليعة ، ط الأولى ، 2005) ،ص 265 .

[8] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون ، "**المقدمة**"، مصدر سابق ، ص559

[9] ينظر: المصدر نفسه ، ص560

[10] ينظر: المصدر نفسه ، ص 560

[11] ينظر: ابن مضاء القرطبي :"**الرد على النحاة**" ، مصدر سابق ، ص 139 وما بعدها .

[12] ينظر: د . عبد الله الخثران:" **الاتجاهات التجديدية في الدرس عند عبد القاهر الجرجاني وابن خلدون** "، (القاهرة ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ، ط الأولى ، 1987) ص 17 وما بعدها .

[13] ينظر: د . عبد الله الخثران:" **الاتجاهات التجديدية في الدرس عند عبد القاهر الجرجاني وابن خلدون** "، المرجع السابق ص 56.

[14] ينظر: د . إبراهيم أبو عباة "**لغة القرآن مكانتها والأخطار التي تهددها** "،(الرياض ، الجمعية العلمية السعودية للغة العربية، ط الأولى ،1429هـ) ص46_47 بتصرف .

[15] ينظر: د . ميشال زكريا "**الملكة اللسانية في مقدمة ابن خلدون**"، (بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط الأولى ، 1986م ) ص 25

[16] ينظر: د . ميشال زكريا "**مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة** "، (بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، ط الأولى 1993، ص 61 و بعدها .

[17] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون ، "المقدمة "، مصدر سابق ، ص 555.

[18] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون ، "المقدمة " ، المصدر السابق ، ص 558.

[19] ينظر: د. ميشال زكريا "**قضايا ألسنية تطبيقية**" مرجع سابق ، ص 63.

[20] ينظر: عبد الرحمن بن خلدون ،"**المقدمة** "، مصدر سابق ، ص 562.

[21] ينظر: المصدر نفسه : ص 561.

[22] ينظر: د . ميشال زكريا "**مباحث في النظرية الألسنية وتعليم اللغة** " ، مرجع سابق ،
ص 155.